محاسن الاقتباس القرآني في شعر السِّجن لابن زيدون الأندلسي

Beauty of Qur'ānic Quotation in the Prison Poetry of Ibn Zaydūn

سيد سيارعلى شاه *

منظر خان **

Abstract

This article examines the impact of the sublime Qur'ān on the poetry of Ibn Zaydūn which he wrote when he was imprisoned by Ibn Jahūr, the king of Cordoba, Andalusia. During this period he wrote poetry on various topics and sent them to the king. His prison poetry comprises of the use of direct quotation from the sublime Qur'ān as well as implied quotation of it; in some places he quoted exact text of the Qur'ān for incorporating its literal meaning and in other places, he extracted ideas from Qur'ān in support of his argument. This article presents a detailed overview of both the cases in his poetry.

Keywords: Ibn Zaydūn, Direct quotation, Implied quotation, Ibn Zaydūn's poetical disposition

أنَّ القرآن أصل الأدب العربي الإسلامي و له الفضل الأكبر في حفاظة اللغة العربية و أحيائها، و أحدث فيها أنواع من العلوم و الفنون فأصبح الأساس القويم في بناءِ الفكر العربي الإسلامي و الثقافة العربية، فلذا هو المصدر الأساسي لِأدب الإسلامي. نزل القرآن و أتى بأساليب التي لم يعرفها العرب قبل نزوله فأخذ الشعراء و الأدباء و الخطباء منه و ارتعوا فيه رغبةً و رهباً، اقتبسوا من نوره و بلاغته و أساليبه و هو المثل الأعلى في الفصاحة و البلاغة.

معنى الاقتباس:

القبس من "قبس يقبس قبساً" بمعنى شعلة أو الجمرة من نارٍ، كما يقول قبستَ النّار قبساً أي أخذت منها طائفة أو شعلة لحاجتكَ كما في قوله تعالى على لسان موسى عليه السّلام " إِنِّي آنَستُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنهَا بِقَبَسٍ"[1]

أمّا معنى الاقتباس اصطلاحاً هو تضمين الشعر أو النثر شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث النبوي من غير دلالةٍ على أنّه منهما مع جواز بعض التغير في نص المقتبَس من غير خلل فيه.وإذا كان من الاقتباس من شعر غيره سُمي ذلك تضميناً.[2] قال البحتري:

ظلمتُ أخاً لو التمس انتصاراً غزاك من القوافي في جنود

و قد عاقدتني بخلافٍ هذا و قال الله: أوفوا بالعقود[3]

اقتبس الشاعر من هذه الآية القرآنيةِ " يٰاَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اوفُوا بِالعُقُودِ"[4]. قال ابن زيدون:

أأنكث فيك المدح من بعد قوّة و لا أقتدي إلاّ بناقضة الغزل؟[5]

قد أخذ الشاعر اقتباساً من القرآن و يشير بهذا البيت إلى الآية الكريمة " وَ لَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزلَهَا مِن بَعدِ قُوّةٍ أنكٰثاً"[6].

أمّا الاقتباس في النثر هو ما اقتبس ابن زيدون في رسالة الجِدِّيّة الّتي أرسلها من وراء القضبان إلى أمير قرطبة أبي الحزم

* محاضر الدّراسات الإسلاميّة جامعة صوابي

** الباحث بمرحلة الدكتوراه بقسم اللغة العربية جامعة بشاور و خطيب بالمسجد الأقصى كليّة النبات، جامعة بشاور

بن جهور لطلب العفو و الاستعطاف فقال " و قال لي نوح اركب معنا فقلت سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء، و شربتُ من النهر الذي ابتلي به جنودُ طالوت، و اعتديت في السبت" [7]

هذا النص من الرسالة الجديّة و اقتبس من القرآن الكريم و هو يشير إلى آيات القرآن و هي " يٰا بُنَيَّ اركَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُن مِنَ الكٰفِرِينَ، قَالَ سَآوِي إِلٰى جَبَلٍ يَعصِمُنِي مِنَ الماءِ"[8]. "فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيْكُم بِنهرٍ ج فَمَن شَرِبَ مِنهُ فَلَيسَ مِنّيج وَ مَن لَم يَطعَمهُ فَإِنَّه مِنّي إِلَّا مَنِ اغتَرَفَ غُرفَةً بِيَدِهُ ج فَشَرِبُوا مِنهُ إِلَّا قَلِيْلًا" [9] " إِذْ يَعْدُوْنَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأتِيْهِم حِيْتَانُهُم يَوْمَ سَبْتِهِم شُرَّعاً وَّ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لا لَا تَأتِيْهِم جكَذٰلِكَ نَبْلُوْهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ "[10]

أنواع الاقتباس:

أنَّ الاقتباس على نوعين، أحدهما الاقتباس النصّي و الأخرى الاقتباس الإشاري.

الاقتباس النصّي:

هو ما يلتزم فيه الشاعر بلفظ النص القرآني و تركيبه أو من الحديث النبوية.[11] كما قال الشاعر أبو الحسن البغدادي الفُكيك[12] يصف حاله بين سجناء الّذين كانوا معهم في السِّجن:

أمسي و حولي رجالٌ في الكبول و هم مقرَّنون بأصفادٍ و أغلالٍ[13]

اقتبس الشاعر من نص القرآن الكريم وتركيبها كما يشير إلى هذه الآية"وَإِذَا أُلقُوا مِنهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دعوا هُنَالِكَ ثُبُوراً". [14]

الاقتباس الإشاري:

هو أن يأخذ الشاعر من القرآن ما يشير به إلى آيةٍ أو آياتٍ منه من غير الإلتزام بلفظها وتركيبها.[15]كما قال أبو فراس الحمداني:

فلا آملٌ غير عفو الآله ولا عــمل غير ما قد مضى
فإن كان خيراً فخيراً تنال و إن كان شراً فشراً ترى[16]

قد اقتبس الحمداني من هذه الآية القرآنية "فَمَن يَّعمَل مِثقَالَ ذَرّةٍ خَيرِيّرَهُ،وَمَن يّعمَل مِثقَالَ ذَرّةٍ شَرَيّرَهُ". [17]

الفرق بين الاقتباس و التضمين و الإيداع:

لا بد من كشف الغطاء عن كلمة التضمين والإيداع، أنَّ التضمين هو أن يُضمّن الشعر شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء،ومراده الاستعانة على تأكيد المعنى المقصود، لكنَّ بعض البلاغيين لم يفرّق بين الاقتباس والتضمين.[18]

أمّا الفرق بين التضمين و الإيداع هو أنَّ التضمين يشمل الشعر و النثر و أمّا الإيداع هو يقتصر على الشعر فحسب.[19]كما قال ابن زيدون:

و إن يكُ رُزءاً ما أصاب به الدهر ففي يومنا خمرٌ، و في غده أمرٌ[20]

أنَّ بيت الثاني من الشعر هو قول امرئ القيس، قد ضمّن الشاعر لزيادة القوّة و التأثير في المعنى المطلوب. أمَّا قول امرئ القيس هو " ضيّعني صغيراً، و حمّلني دمه كبيراً، لا صحو اليوم و لا سُكر غداً، اليوم خمرٌ و غداً أمرٌ". [21]

الاقتباس القرآني في شعر السِّجن لِابن زيدون:

أنَّ القرآن الكريم هو مصدر أساسيٌ و منبعٌ أصليٌ لِأدب العربي الإسلامي، و له أساليب قَيّمة حيث ظهر أثره جلياً في شعر العربي الإسلامي، و نجد هذا الأثر و أخذ الاقتباس من القرآن الكريم في شعر الأندلس.

أنَّ الشاعر ابن زيدون اتخذ وسيلة باقتباسات القرآنية و زيّن شعره الّذى أنشده في غياهب السِّجن وراء الأبواب السوداء، نبحث حول الموضوع بالموضوعات التالية:

اطلاق السراح كسلامة النَّار على إبراهيم عليه السّلام:

مكث الشاعر ستة عشر شهراً في السِّجن بألمٍ ومشقةٍ، فأنشد قصيدة سجنيّةً في الزنزانة، فشعر نفسه محرقةً في نار القيد فعبّر عنها بنار الجهنم، فاستعطف من ابن الجهور مستمداً بقصة سيدنا إبراهيم عليه السّلام و بآية القرآن الكريم كما قال:

بأبي أنتَ إن تشأ تك برداً   و سلاماً كنار إبراهيم[22]

قال الشاعر أفديك بأبي يا أبا الحزم بن جهور، إنّك إن شئت الإحسان إليّ استطعت أن تحول نكبتي وحالتي خلف القضبان إلى جنّة، ونار أيّام السِّجن والفراق إلى برودة الحياة الحريّة والسَّلامة عليّ مثلما كانت النّار برداً وَّسلاماً على إبراهيم عليه السّلام.

اقتبس الشاعر من القرآن الكريم و الإشارة فيه إلى هذه الآية " قُلنَا يَا نَارُ كُونِي بَرَدَاً وَّ سَلَاماً عَلَى إبرَاهِيمَ"[23]

قد أخذ في كلامه اقتباساً من آية القرآن الحكيم من غير أن يصرّح بأنّها من القرآن الحميد، و الغرض منه أن يستعير من قوتها قوةً و إن يكشف عن مهارته في أحكام الصلة بين كلامه و الكلام المقتبس منه.

شبّه الشاعر حياته في السِّجن و أيّامه بنارٍ حريق و شبّه الحرّية و إطلاق سراحه بسلامة النّار عليه مثلما سلم و ابرد على إبراهيم عليه السّلام حينما ألقاه نمرود في النّار و القصة معروفة في نص القرآن.

استخدام المثل، الناقضة الغزل:

أنزل الله سبحانه و تعالى القرآن الحكيم بلسانٍ عربي مبين، تبياناً لكلِّ شيءٍ و هدىً و رحمةً للمؤمنين، ضرب الله تعالى في كتابه الامثال و الحكم لِيصرف الآيات لقومٍ يعقلون "وَ تِلكَ الأمثَالُ نَضرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعقِلُهَا إلا العالِمُونَ"[24] اقتبس ابن زيدون من آية القرآن التي تتعلق بأمثال القرآن حيث قال:

أ أنكث فيك المدح من بعد قوّةٍ   و لا أقتدى إلاّ بناقضة الغزل؟[25]

يقول هل انقض مدحي القوي فيك و لا أقتدي إلاّ بناقضة الغزل؟ نراه ابن زيدون أنّه يحيل إلى ناقضة الغزل، فيقول إلى الأمير، كيف يليق لي أن أهجوك بعد المدح، فأكون مثل ناقضة الغزل الحمقاء؟.

قد اقتبس الشاعر آية القرآن و يشير في البيت إلى هذه الآية الكريمة "وَ لَا تَكُونُوا كَالّتِي نَقَضَتْ غَزلَهَا مِن بَعْدِ قُوّةٍ أنكَاثاً".[26]

هذا مثلٌ في الآية الكريمة ضربه الله لمن نقض العهد الّذى يعطيه، كمثل الّذى غزلت ثُمَّ نقضت غزلها، فقد أعطاهم، ثُمَّ رجع، فنكث العهد الّذى أعطاهم مرّةً بعد مرةٍ.[27]

قال الرازي: إنَّها إمرءة من قريش يقال لها " رايطة" و قيل " ريطة" و كانت حمقاء تغزل الغزل هي و جواريها فإذا غزلت و أبرمت أمرتهنَّ فنقضن ما غزلن".[28]

أمَّا غرض ابن زيدون من الاقتباس هو أنّه يخاطب الأمير ابن جهور و يقول: قد مدحتك مدحاً، و لبثتُ مُدَّةً تحت ظلِّ رحمتك، و رغدتُ العيش رغداً، و أنعمت عليَّ من كرمك العظيم، فهذا عهد أن أنشد القصائد في مدحك، فما جزآء الإحسان إلا الإحسان، فما أريد أن انقض عهدي و يخالف وعدي.

أنَّ المعنى المطلوب من اقتباس ابن زيدون و إحالة المعنى من الآية إلى البيت تتوافق تماماً الّذى أراده.

الزنزانة المظلمة:

عبّر الشاعر عن آلامه و صعوباته في السِّجن و عن الزنزانة الّتي أصبحت على الشاعر كالصّريم فيقول:

نارٌ بغي سرى إلى جنّة الأمن   لظاها، فأصبحت كالصَّريم[29]

قال الشاعر نارُ ظلمٍ مشى لهبُها إلى جنّة آمنةٍ فأصبحت مظلمة كالليل، أشار إلى هذه الآية الكريمة " فَأَصبَحَتْ كَالصَّرِيم". [30]

قال الزمخشري: "الصَّريم" بمعنى الليل إذا احترقت فاسودت، و قيل: النّهار إذا يبست و ذهبت حضرتها، أو لم يبق فيها شيء"[31]

شبّه الشاعر ظلمات السِّجن و غرفاته بالليل الغاسق، يدُّل هذا الأسلوب بكمال علمه و معرفته بمعنى القرآن الكريم و أخذ المعنى و الألفاظ منه لِتعبير ما في قلبه بالنظم و الشعر، و هكذا يدُّل على أنّه أخذ أثراً تامّاً من القرآن الكريم.

أمّا كلمة " لظاها" في الشعر إشارة إلى هذه الآية " كَلّا ۖ إنَّها لَظّى"[32] و معناه نجد في آية أخرى " فَأنذَرتُكُم نَارَاً تَلَظّى"[33] أي النارُ ذات لهبٍ.

عاش الشاعر حياتاً ذات النعمة و الثروة فسُجن و انقطع صلاته مع أهله و أولاده و خاصةً لهب قلبه في حب المحبوبة إسمها وُلّادة بنت المستكفي، و ذكر الماضي المنعم، فعبّر عن ذلك مستمداً معناه بآية القرآن الكريم.

الحريّة و الوصال كشرب الخمر من عين التسنيم:

قد وظّف الشاعر معرفته و علمه الواسعة بمعاني القرآن الكريم في شعره فيقول:

إذ ختامُ الرضا المسوّغ مِسكٌ   و مزاج الوصالِ من تسنيم[34]

نلاحظ في أشعار السِّجن عند ابن زيدون الغرض الأساسي فيها هي الاستعطاف واستمالة قلب الأمير ومع ذلك كان المدح من أكثر الأغراض الملازمة للاستعطاف، ونرى ابن زيدون مدح لِأمير ابن جهور كما نجد ذلك الوصف في قصائد الشعراء السابقين. شبّه الشاعر رضاء الأمير و إطلاق سراح الشاعر بالقارورة الّتي ملئت من الخمر الخالص و ختْمه مسك، و هكذا شبّه وصال ابن جهور بالخمر الّذى مزّج فيها من عين التسنيم، وفيه التنافس للمتنافسين، حيث قال الشاعر في البيت، أنَّ آخر العيش الهنيء مِسكٌ، و طعم الوصل كأنّه ماء الجنّة.

اقتبس ابن زيدون من الآيات القرآنية "يُسقَونَ مِن رَّحِيقٍ مَّختُومٍ، خِتٰمُهُ مِسكٌ ۖ وَ فِي ذَلِكَ فَليَتَنَافِسُ المتَنَافِسُونَ، وَ مِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ، عَيناً يّشرَبُ بِهَا المقَرَّبُونَ"[35] يشربون أهل الجنّة الشراب الخالص وتختم أوانية بالمِسك،والإمتزاج فيه من عينِ التسنيم. [36]

ظنَّ الشاعر بحسن الوقت و قال إنَّ عتاب السِّجن محمود عواقبه عندما الأمير يطلق سراحه و يجعله من المقرّبين و يفوز على وظيفة الوزارة أو السفارة، و ذلك من أحسن العواقب و أنعم الإحسان و المنّ عليه.

الشكوى عن الأصدقاء:

كان ابن زيدون يشكو الأصدقاء و يشير إلى قصة السّامري الّذى أضل بني إسرائيل بعد ما خرج موسى عليه السّلام لميقات ربّه إلى الطور، و في القصيدة يشكو الشاعر أصدقاءه الّذين انقلبوا عليه بعد ما تنكروا له فقال:

ما ترى في معشرٍ حالوا   عن العهدِ وخاسُوا
و رأوني ســـــــــامِرِيّاً   يُتّقى منه المِساسُ[37]

أرسل ابن زيدون قصيدةً سينيّة من غياهب السِّجن إلى صديقه أبي حفص بن برد و يشكو أصدقاءه الّذين انقلبوا عليه فقال ما رأيك في جماعةٍ من النّاس خانوا العهد، و ابتعدوا عن الوفاء و ظنُّوا بي السّامريُّ و اتّقوا من المسِّ.

اقتبس الشاعر من القرآن الكريم و أخذ المعنى من هذه الآية " قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يٰسَامِرِيُّ، قَالَ بَصُرتُ بِمَالَمْ يَبصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّن أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذتُهَا وَ كَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيٰوةِ أن تَقُولَ لَامِسَاسَ"[38]

يشير ابن زيدون إلى داء السَّامري الّذى جعل العجل من ذهبٍ و كان يدعو بني إسرائيل إليه، فأجابوا و عكفوا له و أشركوا بالله شركاً، و إنَّ الشِّرك لظلمٌ عظيم، فلما رجع موسى عليه السّلام إليهم وجدهم كانوا يعبدون العجل، جسداً له خوار، فدعا على السَّامري، إنَّ لك مدة حياتك أن تفارق النّاس، و ذلك أنّه تعالى رماه بداءٍ عقامٍ لا يكاد يمس أحداً، فإن كان يمسه رجلاً فيحمى من ساعته حمىً شديدة فتحامى النّاس و تحاموه، و كان يصيخ بأعلى صوته لامساس، و حرم عليه ملاقاته و مصافحته فصار بين النّاس أوحش من النافر في البيداء.[39]

و في مثل هذا المعنى أنشد شعراء العربية أشعاراً كما قال الشاعر:[40]

لكنَّ لإفلاسي حببتُ السّامريُّ بِلا مساسِ[41]:

قال ابن سهل الإسرائيلى:[42]

يا يوسفيّ الحسن و يا سامريّ الهجر أشفق للهوى العذريّ[43]

تأسي أمّه الباكية بأمِّ موسى عليه السّلام:

ابن زيدون ذكر أمّه في ديوانه مرّةً واحدةً حينما زارته في السِّجن فبكت خوفاً على مصيره فحث ابن زيدون على التأسي بأمِّ موسى عليه السّلام و يظهر أنّه كان يحبها حبّاً جماً و لا تفيدنا المصادر عن تاريخ وفاتها ولكننا نعلم أنّها ما زالت حيةً عند خروجه من السِّجن سنة 433هـ.[44] و في ذلك يقول مقتبساً من آية القرآن الكريم:

أمَقتُولَة الأجفَانِ! ما لك والهاً ؟ ألمْ تُركِ الأيَّام نجماً هوى قبلي؟

أقلّي بُكاءً ، لستِ أوّل حُرَّةٍ طوتْ بالأسى كشحاً على مضض الثَّكلِ

وَ فِي أمِّ مُوسَى عِبرَةٌ إن رَمَت بِه إلى اليَم فِي التَّابُوتِ فَاعتَبِري و اسلي[45]

خاطب الشاعر أمَّه حينما زارته في السِّجن فبكت فقال لها أفاترة العينين ما لكِ حزينة، ألم تركِ الأيام نجماً سِقط قبلي؟ خففي بكاءً، فلستِ أوَّل حُرَّةٍ أعرضت حزينه و على مضض أي ألماً شديداً و صعباً، و في قصة أمِّ موسى عِبرة، إذا رمت بابنها إلى الماء فاعتبرى و تعزّي.

اقتبس الشاعر من القرآن باقتباسٍ إشاريٍ و هو أن يأخذ الشاعر من القرآن الكريم ما يشير به إلى آيةٍ أو أياتٍ منه من غير الالتزام بلفظها و تركيبها، و هي الآية" إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوْحَى. أنِ اقْذِ فِيْهِ فِي التَّابُوْتِ فَاقْذِ فِيْهِ فِي اليَمِّ فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ"[46]

ألهمت أمُّ موسى عليه السّلام حين كانت ترضعه، و تحذر عليه من فرعون و ملته أن يقتلوه، فاتخذت له صندوقاً و وضعت فيه موسى عليه السّلام و جرت الصندوق في البحر، فذهب به البحر إلى دار فرعون، فحصل لها من الغمِّ و الهمِّ و خوفاً على مصيره، لكنَّ الله تعالى رجع ولدها إليه، فقرَّت عينها،[47] فعليك يا أمي الباكية ! الصبر، لا تبكي و لا تحزني بل فاعتبري بِأُمِّ موسى عليه السّلام و سأرجع إليكِ بعد مدَّةٍ غير بعيدٍ.

تبرئة النفس عن التُّهم كما برئ ذئب يوسف عليه السّلام:

أنَّ الشاعر ابن زيدون عندما عرّض بالوشاة شبّههم بأخوة يوسف عليه السّلام فقال كان الوشاعة هو النّمامون، و قد بُليت بكذبهم و كنتُ في نظرهم ذئباً، كما فعل مثل ذلك أولاد يعقوب عليه السّلام بأخيهم يوسف عليه السّلام

حينما رموا التُّهمة على الحيوان المفترس الّذى لا صورة و لا ذات له في الخارج بل قالوا ما قالوا من القصّة الخرافيّة و تصبغوا قميص يوسف عليه السّلام بدمٍ كذبٍ. كما قال:

كَانَ الوُشَاة، و قَد مُنيتُ بإفكِهِم أسبَاطَ يعقوبٍ و كُنتُ الذّيبَا

وَ إذَا المنَى، بِقَبُوْلِكَ الغَضَّ الجَنَى هُزَّتْ ذَوَائِبُهَا ، فَلَا تَثْرِيْبَا[48]

قال الشاعر أنَّ الوشاة الّذين يكونوا في حاشية الأمير رموا عليّ تهمة أكل أموال الغير بالباطل و ظلماً و غصب أملاك الرعايا غصباً لكنَّ ليس كذلك في الحقيقة كما ليس الذئب أكل يوسف عليه السّلام حقيقة.

أنَّ العدول عن الحقيقة القرآنية إلى فضاء المجاز يُعدُّ من باب الانزياح الشّعريّ[49]، و ذلك عندما يلجأ الشاعر إلى التَّصوير البيانيّ، فيربط بين المعنى القرآني و واقعة الشّعريّ، مع مراعاة المناسبة بين اللفظ القرآني و السيّاق التصويريّ الّذى نُقل إليه، فلا بُدَّ من وجود صلّة بين الدّالِ و المدلولِ، يتمّكن المتلقّى من إدراكها بفضل رصيده الدِّيني و إعمال فكره في النص الشّعريّ[50].

مدح ابن زيدون ممدوحه أمير ابن جهور لِطلب العفو و الاسترحام و إقناعه بصدق كلامه، لذا يستحضر فاعليَّة التَّعبير القرآني، فبراءة ابن زيدون ثابتةٌ ثباتَ براءة ذئب يوسف، والحاسدون له يغيرون منه غيرة أسباط يعقوب من أخيهم، وهو يستمطر رحمة المعتذر إليه ويرجو غفرانه عند ما يُذَكِّره بمثال عظيم للعفو،إنَّه عفو يوسف عن إخوته لما جاؤوه معتذرين بعد أن أمعنوا في غيّهم، و أشار إلى أنَّ العفو عن الشاعر البرئ أولى.

كثير ما يرمز الذّئب في شعرنا العربي إلى الغدر و الاحتيال، لكنَّ ما إن يُقرن الذئب بقصَّة يُوسف عليه السّلام الَّذى أكل يُوسف في زعم أسباط يعقوب رمزاً للبراءة، فيُقال ذئب يوسف، لِكُل من رُميَ بذنب اقترفَه غيرُه، و هو منه براء، حتّى قيل في المثل "بَرِئ براءةَ الذّئبِ من دم ابن يعقوب"[51] فكان الشاعر تعرَّفَ ذالك الأسلوب من الشعراء المشارقة.

وفي البيت الثاني ينقل الشاعر كلمة "لا تثريبَ" إلى سياق مختلف تماماً عن السيّاق القرآنيّ، فالشاعر يطلب من ممدوحه الصّفح و الغفران على الرّغم من أنَّه لم يرتكب ذنباً، فهو يرعى عهود المحبَّة و الوصال، و لم يغدر أو يخن كما حصل مع إخوة يوسف. لكنَّه قانون العشق، فالمتيّم عليه أن يعتذر إن أخطأ أو لم يُخطِئ، فلعلّه يفوز بالوصال يوماً.

يشير في البيت الأوّل إلى هذه الآية "قَالُوا يَا اَبَانَا إنَّا ذَهَبْنَا نَستَبِقُ وَ تَرَكنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِئبُ"[52]

و في البيت الثاني ينظر الشاعر إلى قول يوسف عليه السّلام لإخوته و يشير إلى هذه الآية الكريمة " قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ط يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَ هُوَ اَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ".[53]

استخدم ابن زيدون هذا النص القرآني في الوقت الّذى كان موفقاً لمطلوبه غاية التوفيق، فالشاعر يطلب من هاجره الّذى أوسعه تأنيباً أن يقول هذه الكلمة"لا تثريب" كما قال سيدنا يوسف عليه السّلام لإخوته فالعفو لم يكن ليضره بأي حالٍ من الأحوال.

الفرار من السِّجن:

حينما طال الحبس و القيد على الشاعر و شعر الخوف من الأمير حتّى اضطرّ إلى الهرب من السِّجن خوفاً ممّا قد يناله من عقوبةٍ و ألمٍ شديدٍ وراء القضبان الحديدية و في الزنزانة المظلمة، فعبّر في قصيدته الطائيّة عن فراره من السِّجن و أمله في العفو مقتبساً من القرآن الكريم، فقال:

ففررت فإن قالوا الفرار إرابةً فقد فرَّ موسى حين همَّ به القِبطُ

وحلم امرئٍ تعفو الذنوبُ بعفوه وتُمحى الخطايا مثل ما مُحي الخطُّ[54]

أنَّ البيت الأول يدُلُّ على فرار ابن زيدون من السِّجن و هذا كما ذكر بعض المصادر الأدب العربي لكنّ بعض الأدباء ذهبوا على أنَّ ابن زيدون أطلق سراحه بشفاعة صديقه له الوليد بن أبي الحزم بن جهور.

مهما يكن من أمرٍ من فراره أو اطلاق سراحه بشفاعة الوليد فموضع البحث و التحقيق هنا هو إستشهاد ابن زيدون بهجرة سيدنا موسى عليه السّلام من مصر إلى مدين حينما هو خرج و انفصل من قومه بعد ما وكز رجلاً من القِبط.

اقتبس ابن زيدون من هذه الآية القرآن الكريم " فَفَرَرْتُ مِنْكُم لما خِفْتُكُم فَوَهَبَ لِي حُكْمًا وَّجَعَلِنِي مِنَ المرْسَلِيْنَ"[55]

أنَّ كلمة " فرَّ" تأتي بمعنى " هرب و انفصل"[56] فشبّه الشاعر فراره من خوف الأمير بإنفصال موسى عليه السّلام، فمراد الشاعر ومقصده هو فإن كان الفرار من التُّهمة والعذاب جنايةٌ وجرمٌ فلِم ذا سيدنا موسى عليه السلام ذهب من بيت فرعون حذراً على نفسه إلى مدين لخوف القصاص الذى قتله رجلاً من القِبط. فقال فررتُ وخرجتُ من سِجنك وحكومتكَ فهذا الإنفصال فقط لِخوفٍ أشعر في قلبي. لكنَّ الفرار من الظلم و الهرب ممّا لا يطاق من سنن المرسلين، بل هاجر موسى عليه السّلام بأمر الله تعالى إلى مدين. و في مثل هذا المعنى نجد قول الشاعر حسين بن حجاج:

لا عار لا عار في الفرار فقد فرّ نبي الهدى إلى الغار[57]

خلاصة البحث:

إنَّ ابن زيدون من الشعراء الّذين سُجنوا في غياهب السِّجن و في الديارات الدامس، و أنشدوا القصائد السِّجنيّات في طلب العفو و الاسترحام.

أنَّ الشعراء يستخرجون من القرآن الكريم ألواناً من المقومات لِكلامهم، و يعتمدون على أسلوبه و بيانه، و يقتبسون منه لِيقوي به معاني أبياتهم كما نجد ذلك اللون في ديوان الشاعر ابن زيدون الأندلسي و خاصةً في شعره السِّجن.

لقد كانت الاعتقال عاملٌ فعالٌ في حياة الأدبية لِابن زيدون، ففي السِّجن و القيد أنشد قصائد المدح و الاستعطاف و العتاب والاسترحام، واستخدم الكلمات المفردة والمركبة من كتاب الله تعالى عزَّ وجلَ و اقتبس منه اقتباساً نصيّاً وإشارياً.

لما اشتدَّ عليه صعوبات السِّجن و الاعتقال و آلامه و تحزّبت الأمور من حوله عليه فراح يسترحم الأمير ابن جهور مستمداً بمعاني القرآن الكريم و يتأسي نفسه بالأنبياء و المرسلين، و هذا يثبت أنّ له معرفة قويّة بمعاني القرآن و علمه.

أمّا أسلوب الاقتباس قد تجلّت في شعر السِّجن لِابن زيدون المفردة القرآنية المقتبسة بعداً تصويرياً هاماً حين تكون مرتبطة بأحداث معينة بالمرسلين و قيّس تلك حوادث الزمان و صروفها على نكبته و محنته في السِّجن.

نجد ابن زيدون ماثلاً في القرآن بطريقة جميلة وهو يمدُّ توافق المعنى القرآني ثم تحدثنا عما أراده في هذا الاقتباس و المعنى المطلوب.

نجد أنّ ابن زيدون قد أفاد في شعره السِّجن من القرآن الكريم و تأثر به في كثير من جوانبه سواء من ناحية المعنى أو اللغة أو التشبيه أو من ناحية الأسلوب و البيان.

الهوامش والمصادر:

1 سورة طه 20: 10

2 مُحَّد التونجي. معجم المفصل في الأدب. ط2: 1999، دار الكتب العلمية بيروت، ص 120

3 ديوان البحتري، ص 578

4 سورة المائدة 5: 1

[5] ابن زيدون، أحمد. ديوان ابن زيدون. ط: 2004م، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 242

[6] سورة النحل 16: 92

[7] ابن بسام، على بن بسام. الذخيرة. ط1: 1998م، دار الكتب العلمية،بيروت، 1/ 209

[8] سورة هود 11: 42 43

[9] سورة البقرة 2: 249

[10] سورة الأعراف 7: 163

[11] ابن الأثير، ضياء الدين. المثل السائر. دار نهضة مصر، 200/3

[12] أبو الحسن البغدادي الفُكيك كان من الشعراء الوافدين على الأندلس من الشرق، و هو من الشعراء السجناء قال المقري "كان حلو الجواب، مليح التندُّر، يضحك من حضر، و لا يضحك هو إذا ندر و كان قصيراً دميماً، و مع بديهته القوية، الّتي توفي على الرَّوية، و قد عاش في كنف المعتمد بن عباد و مدحه، كما مدح المقتدر بن هود و كان مشهوراً بالهجاء. عُرف عن الفكيك أن في دينه رهق أي أنّه كان متهماً في دينه بالإلحاد أو الزندقة فأفضت به الحال أن سجنه المعتمد بن عباد في إشبيلية، فأخذ يستعطف المعتمد و يرسل إليه من السِّجن بقصائد المديح يستدر بها عطفه، و يستميل قلبه لكي يطلق سراحه، و يعفو عنه. (المقرى، أحمد بن مُحَمَّد. نفح الطيب. 1988م، دار صادر بيروت، 3/ 121)

[13] الذخيرة، 4/ 224

[14] سورة الفرقان 25: 13

[15] المثل السائر، 3/ 200

[16] أبو فراس، حارث بن سعيد بن حمدان. ديوان أبي فراس الحمداني. ط 2: 1994م، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 22

[17] سورة الزلزال 99: 7 8

[18] المثل السائر، 3/ 203

[19] أيضاً: 205/3

[20] ديوان ابن زيدون، ص 197

[21] شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي. ط: 2001م، دار المعارف مصر، ص 237

[22] ديوان ابن زيدون، ص 282

[23] سورة إبراهيم 14: 69

[24] سورة العنكبوت 29: 43

[25] ديوان ابن زيدون، ص 242

[26] سورة النحل 16: 92

[27] الطبري، مُحَمَّد بن جرير. تفسير الطبري. ط: 2001م، هجر للطباعة و النشر، بيروت، 14/ 343

[28] الرازي، مُحَمَّد فخر الدِّين. التفسير الكبير. ط: 1981م، دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت، 20/ 106

[29] ديوان ابن زيدون، ص 282

[30] سورة القلم 68: 20

[31] جار الله الزمخشرى، محمود بن عمر. تفسير الكشاف. ط: 1998م، مكتبة العبيكان، الرياض، 6/ 186

[32] سورة المعارج 70: 15

[33] سورة الليل 92: 14

[34] ديوان ابن زيدون، ص 280

[35] سورة المطففين 83: 27

[36] قال الزمخشري الرحيق هو الشراب الخالص الّذى لا غشّ فيه، و تختم أوانية من الأكواب و الأباريق بمسك، و سُميت العين بالتسنيم، لأنها مصدر من سنم بمعنى رفع، إمّا لِأنّها أرفع شرابٌ في الجنّة و إمّا لِأنّها تأتيهم من فوقٍ، على ما روي أنّها تجري في الهواء متسنمة فتنصب في أوانيهم. (تفسير الكشاف، 6/ 339)

[37] ديوان ابن زيدون، ص 139

[38] سورة طه 20: 96 97

[39] الألوسي، سيد مُحَمَّد. التفسير روح المعاني. دار احياء التراث العربي، بيروت، 16/ 256

[40] البيت ليحي بن على الكتبي

[41] الأصبهاني، عماد. خريدة القصر و جريدة العصر. 2/ 324

[42] إبراهيم بن سهل الإشبيلي،نشأ في إشبيليّة الأندلسية في عهد الموحدين،ولد سنة 609هـ كان أديب وشاعرٌ، نبغ في الشعر وهو شابٌ ذكيٌ، أنشد القصائد الغزليّة فشعره جميل وأسلوبه رائعٌ.مات سنة 649هـ.(الزركلی،خير الدين.الأعلام.ط: 2002م،دار العلم للملائين،بيروت، 1/ 42)

[43] إبراهيم بن سهل. ديوان ابن سهل. ط: 2003م، دار الكتب العلمية بيروت، ص 818

[44] جودت الركابي. في الأدب الأندلسي. ط: 1960م، دار المعارف بمصر، ص 164

[45] ديوان ابن زيدون، ص/ 240

[46] سورة طه 20: 38 39

[47] ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير ابن كثير. ط: 2000م، دار ابن حزم بيروت، ص 1211

[48] ديوان ابن زيدون، ص/ 48

[49] أنَّ مفهوم الانزياح مفهوم بلاغيّ نقديّ واسع،وهو خروج التّعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياساً في الاستعمال، رؤية ولغة وصياغة وتركيباً. (اليافي نعيم. دراسات نقديّة في النظرية و التطبيق) 1997م، اتحاد الكُتَّاب العرب، دمشق، ص 92

[50] ويس، أحمد مُحَمَّد. الانزياح في التراث النقدي و البلاغي. 2002م، اتحاد الكُتَّاب العرب، دمشق، ص 16

[51] الصفدي، خليل بن أيبك. نصرة الثائر على المثل السّائر. 1971م، مجمع اللغة العربية، دمشق، ص 61

[52] سورة يوسف 12: 17

[53] أيضاً: 12: 92

[54] ديوان ابن زيدون، ص 197

[55] سورة الشعراء 26: 21

[56] ابن منظور، مُحَمَّد بن مكرم. لسان العرب. دار صادر بيروت، 5/ 50

[57] الذخيرة، 1/ 255